الرموز التشكيلية كتعبيرات بصرية، وأثرها في نشأة التراث الفني والعلمي

د. سالم بورسلي
استاذ مساعد التصميم بكلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب
٢٠٠٢

خلفية البحث :

الرموز – على اختلاف مجالاتها – تمثل انعكاساً لثقافة كل مجتمع وتختلف باختلاف المجتمع، وباختلاف مجال استخدامها، عبر المكان وباختلاف الزمان . حيث أن الرموز هي اختزال واف لأي ثقافة، وانعكاس واضح لمكونات تلك الثقافة .

والرموز بصفة عامة مستخدمة بشكل كبير في كثير من النواحي الثقافية، بيد أنها موجودة في مناسك الأديان، وفي مجالات الهندسة المعمارية، والرياضيات وفي الأدب والشعر وفي الفنون التشكيلية، حيث إنها من أكثر المجالات استخداما للرموز المحملة بالمعاني، وهي الرموز التي لم يكن لها شكل في السابق، ولم يكن لها أن تظهر إلى الوجود إلا بعد أن ظهرت الحاجة إليها كلغة مجردة قائمة على رموز شديدة التجريد . وكثير من هذه الرموز قد تأثر برغبة الإنسان – عبر الزمان والمكان – في إعطاء شكل لما لا شكل له من أجل أن تحمل بالمعاني كما هو في الأبجدية اللغوية، والأرقام والرموز الرياضية، والرسوم والأشكال الفنية التشكيلية، وعدد الرموز ليس مطلقاً وأنما هو محدد ومقنن باختلاف الثقافات، فكل ثقافة تختار ما يناسبها من الرموز .

حسبما يرى جولدامر (302-7) فإن الثقافة قد عرفت نتيجة تفاعل مجموعة من المواطنين – في مكان ما – مع الكلمات، والقصص، والنظريات، والأفكار بصفة عامة . وكمجالات تأسست على رموز شديدة التجريد، حملت بالمعاني التي ثبتت بمرور الزمن وبتنوع الاستخدام .

وباستخدام الرموز كأداة تفاهم، فإن الإنسان يكون قادراً على زيادة معلوماته، حيث إن الرموز أو التعبيرات المرئية تعطي معنى للأشياء التي مكنت الإنسان من فهمها أو التعرف عليها في السابق، وذلك عن طريق توظيف الرموز في التعبير عن هذه المفاهيم عبر مجالات متنوعة من الاستخدام .

ويقر جاردنر (300-6) بأن : الرموز مرتبطة كذلك بالنواحي الثقافية المرتبطة بالمراحل العمرية المختلفة للأجيال، منذ الطفولة وحتى يلتحقون بأماكن المسئولية

ومراكز السلطة . وفي موطن آخر يبرز أهمية الرموز في الثقافة عندما يقول : أن الرموز تمهد الطريق لإنماء الذكاء الفطري، وحتى يصل المتلقى إلى المراحل الثقافية المكتملة النضج .

إن تقدم الإنسان يقترن دائماً بالرموز التي يستخدمها عبر مراحل هذا التقدم» حيث إن التقدم والرموز دائماً مترابطان معاً، بل هما وجها عملة واحدة . الأمر الذي يجعل من الرموز أداة فعالة في اثراء الثقافة وتنميتها وإعطائها معنى أكثر بقاء وشيوعاً .

وكما تجد الكلمة معناها من خلال السياق الموجودة فيه بأي نص أدبي، فكذلك الرموز في أي مجال، حيث إن أبسط الرموز تكون لها معان ودلالات أكبر عند ارتباطها بمعنى يمكن أن نربطها به أو تعبر عنه، ومثال ذلك علاقة الوقوف في تقاطع الطرق، فهي يمكن أن تضبط حركة المرور في مدينة مزدحمة، بينما لن يكون لها معنى إن وجدت في الصحراء النائية .

وعند النظر إلى رمز ما فإنه يمكننا القول بأن هناك ثلاثة معايير تحكم في قدرته على التعبير تتمثل في الشكل، والتعريف الموضوعي، والمعنى، أما الشكل فهو شكل الرمز نفسه وعلى سبيل المثال يمثل الرمز (X) علامة رفض لشيء ما، وأما من حيث التعريف الموضوعي فإن الرمز قد ينطوي على معنى للرفض يتمثل فيه . ويمكن أن يكون له معنى إذا كان يمثل توقيعاً لشخص ما. وفي كل مثال، فإن نفس الرمز يأخذ معنى له من خلال علاقته بالشيء الذي يرتبط به مباشرة .

وفي كثير من الأحيان يكون هناك صعوبة كبيرة في فهم الرموز، لأن هذه الرموز تمكن أن يكون لها معان كثيرة مختلفة، حيث يشير الأنثروبولوجي (عالم التاريخ الطبيعي) الفرنسي كلوديفي شتراوس إلى أن المؤرخ وعالم الاجتماع يواجهان مشكلة متشابهة لدى تطرقهم إلى تفسير الكيفية التي استخدمت بها الرموز عبر التاريخ، نتيجة تداخل أكثر من معنى للرمز الواحد .

ويقول إكهارت (9- 4) أن معنى الرمز مستقر في أعماق السياق الثقافي لدرجة أن مجرد ترجمة عبارة ما أو توضيح معناها، لا يكفي لفهم المعنى الحقيقي للرمز وعلى أية حال فإنه من خلال الثقافة والثقافة وحدها تكتسب الرموز معانيها لأن أهدافها ومراجعها أنما تتحدد ضمن هذه الثقافة

ويضرب إكهارت (11 - 4) بعض الأمثلة على ذلك، حيث يذكر أن : في التاريخ القديم يمكن أن تكون الرموز قد جرى تصميمها من أجل استخدامها كأسلحة، أو كفكرة لزرع الخوف في نفوس من يشاهدونها، كما أستخدمت الرموز بهدف آخر اثناء العصر البرونزي تمثل في اتخاذها كوسائل لطرد الأرواح الشهيرة . وكذلك استخدام الرمز الشائع والمعروف والمتمثل في الصليب ضد القوى الشيطانية . وهذا الرمز يرجع تاريخه إلى ما قبل المسيحية .

إن أحد الاستخدامات المبكرة جداً للرموز كان شائعا في مجال الكيمياء حيث يشير إكهارت (4 13 -) إلى أن النصوص القديمة تربط استخدام الرموز كنظرية كيميائية بتحويل المعادن إلى ذهب واختراق أسرار الطبيعة، كما كانت الصور الملونة تستخدم لنقل وإيصال ما لا يمكن كتابته أو التعبير عنه كتابة، فاللون الأخضر مثلاً كان يرمز إلى بداية النمو، واللون الأحمر كان يرمز إلى العمل العظيم، أما الأبيض فكان يمثل الزئبق .

العلاقات والرموز تتخلل حياة الإنسان بأشكال وهيئات مختلفة . وقد ساهم فن الرسم أو التكوينات الخطية مساهمة كبيرة وهامة في نمو القدرة على رؤية الرموز واستشفاف معانيها .

يقول إكهارت (12 - 4) في كتابة لغة الرسوم الخطية إن المواد والتقنيات اللازمة لانتاج العلامات والرموز متوفرة بشكل كبير اليوم، لدرجة أن إبداع علامة أو إشارة أو رمز هو شيء يمكن القيام به بسهولة فائقة، خاصة في مجال الاعلان الذي جعل من الرموز لغة متكاملة الأبعاد .

مشكلة البحث :

تمثل الرموز أحد أهم مكتشفات الإنسان الثقافية وهي قديمة قدم الإنسان ذاته، وكذلك تنتشر في كل ممارساته ومفردات حياته العامة والخاصة، فنجدها في اللغة وكذلك في أنشطته الإبداعية كالشعر والأدب، والرياضيات والموسيقى، والفنون التشكيلية، وغيرها . وتتنوع وتتشكل في تجسيدات مختلفة للتعبير عن مدلولات ومعان محددة ومتفق عليها. وعلى ذلك تتحدد مشكلة البحث في التساؤلات الآتية :

ما طبيعة ووظيفة الرموز في مجالات الثقافة المختلفة ؟ وما إسهامات الفن التشكيلي في تجسيد الرموز وإنتاجها ؟ وما العلاقة بين الرمز ومدلوله في مجال الفن التشكيلي ؟ .

فروض البحث :

- تقوم الفنون التشكيلية بعمليات تصميم وتجسيد شكل الرموز .
- تتغير وظيفة الرموز من مجال ثقافي إلى آخر، ومن زمن إلى آخر .

أهداف البحث :

١ – الكشف عن وظيفة الرموز وطبيعتها في مختلف المجالات الإبداعية وخاصة مجال الفنون التشكيلية .

٢ – التعرف على دور الفن التشكيلي – وخاصة مجال التصميم – في تجسيد الرموز وإنتاجها .

أهمية البحث :

- إن الكشف عن الرموز في المجالات الإبداعية المختلفة يدعم ويغذى العمليات الإبداعية في مجال الفنون التشكيلية، ويثريها بمفردات ومدلولات جديدة .

- إلقاء الضوء وتبيان الدور الحيوي للفنون التشكيلية في إبداع الرموز.

- إن دراسة الرموز في الفنون التشكيلية، من حيث وظيفتها، ودلالاتها، وإنتاجها، يقدم إضاءات فكرية وآفاق جديدة في الوعي والدراية في مجال تذوق الفن واكتشاف لغته .

حدود البحث :

- لا يرتبط البحث بحدود زمنية في تتبع الرموز والكشف عنها على مر العصور والأزمنة .
- تتوجه الدراسة في البحث عن الرموز ووظيفتها في أكثر من مجال ثقافي، خاصة المجالات الإبداعية .
- يتناول البحث الرموز في مجال الفنون التشكيلية بعامة، ولكنه يركز بالدرجة الأولى على الرموز ذات الأشكال والرسوم الخطية .
- يركز البحث بشكل خاص على أثر الطباعة في تنظيم الرموز .

منهج البحث :

يتبع البحث المنهج الوصفي في رصد ظاهرة الرموز، ويتناولها بالتصنيف والتحليل في أهم مكونات الحياة الثقافية للإنسان، وذلك لاختبار الفروض وتحقيق الأهداف موضع الدراسة وذلك على النحو الآتي :

- تناول الرموز بالوصف والتحليل في مجال الفنون التشكيلية مع تركيز خاص على الرموز ذات الأشكال والرسوم الخطية .
- إلقاء الضوء على الرموز كأرقام .
- الكشف عن الرموز وبنيتها في اللغة اللفظية .
- استعراض للرموز ودورها في الدين والعقيدة .
- الكشف عن دور الرموز في عمليات الاتصال ونقل الخبرة، وكذلك في مجال التحليل النفسي، والعلاقات الاجتماعية .
- التحقق من الفروض والوصول إلى نتائج الدراسة .

المصطلحات :

يذكر جولدامر (900 - 7) في كتابة "الرمزية والأيقونية" أن : كلمة Symbol تعني رمـــزا، وهـــي مشتقة من كلمة Symbolon اليونانية وتعرف بأنها : رمز، أو وسيلة تعريف. كما يقول جولدامـــر أن الرمز يمكن التعبير عنه في شيء، أو صورة، أو علاقة، أو إماءة، وذلك يحتـــم ضـــرورة ارتباط الرمز بالأفكار، والقيم، لكي يعطى تعبيراً كاملاً عما هو مقصود منه .

أما جاردنر (302 - 6) فينكر من ناحية أخرى – في كتابة "أطر العقل" : إن الرمز هو عبـــارة عن كيان مادي أو مجرد، يعبر عن كيان آخر .

وكقاعدة أساسية فإن الرمز يربط دائماً بين أفراد المجتمع، أو منتسبي ثقافة ما وبين المعنـــى أو الرسالة التي يشير إليها .

الرموز في الفن :

يقول فينجيستين أن الرموز ظلت تحظى بأهمية كبيرة بالنسبة للفن منذ العصور القديمة. وفـــي كتابه "كسوف الرمزية" يذكر فينجيستين أن دوافع الفن في جميع الثقافات كانت بصرية وفكريـــة وسحرية. ويكشف تاريخ الفن أن دوافع الفن قد تزايدت تدريجياً عن تلك التي كانت موجودة في كهوف ما قبل التاريخ في كل من فرنسا وأسبانيا حتى أصبحت توازي تلك الدوافع في منـــاطق الشرق الأدنى القديمة . أما المجتمعات البدائية فقد كانت الأكثر تحفظاً في اختيارها للدوافع التـــي كانت تؤدي إلى ابداع الرموز . ويبين فينجيستين أن السكان الأصليين – على سبيل المثـــال – قاموا بإنتاج أعمال بسيطة من الفن كانت تعتبر مهمة بالنسبة لمعتقداتهم الدينية، وطريقة حياتهم.

واعتقد فينجيستين أن الفنون في مصر وبلاد مـــا بيـــن النهرين كان يعتقد بأنها تشـــتمل علـــى قوى سحريـــة . إن الرمـــوز لا تشتمل قـــي حـــد ذاتها على شيء من السحر، لكـــن المـــرء كـــان يمارس شيئاً من السحر من خلال هـــذه الرمـــوز، وذلـــك عـــــن طريـــق التركيـــز العميـــق علـــى الشيء المعنـــي بينمـــا يطلـــق بعـــــض الأصـــــوات أو التعبيـــرات .

وهـــذه الشعوب القديمة كانت تعتقد بأن بعض الرموز البصرية بها قوة يمكن من خلالها منـح الخلود لبعض أشراف القوم .

الرموز كأرقام :

إن أكثر أنظمة الرموز تجريدا هي تلك التي تستخدمها كل يوم، ألا وهي الأرقام والحـــروف . فكل رقم وكل حرف له معنى خاص به، وعندما يتم ربطه كرمز بأرقام وحروف أخرى، فإنـــه يصبح له معنى مختلف أو معنى أعظم، يختلف عما كان عليه من معان سابقة .

ان الصفر كرقم هو مثال لرمز له تاريخ يثير الاهتمام والسنسكريتية تعد أول لغة تـــم صياغـــة ابجديتها بشكل رمزي حيث يقول منينجز (401 - 10) في كتابة "عـــدد الكلمـــات والرمـــوز" أن الصفر كان مفهوما صعبا وكان من العسير على الأمم القديمة أن تفهمه حيث إنهم لـــم يكونـــوا يعلقون أهمية على امتلاكهم لرمز لم يكن يعنى شيئا بالنسبة لهم. وهذا الرمز (أي الصفر) عندما تمت ترجمته إلى اللغة العربية، فقد أصبح له معنى أكبر إذ أنه أصبح يعنى "الفراغ" أو يعنى كم عددى يفصل بين الأعداد الموجبة وبين الأعداد السالبة .

وخلال القرون التي تلت، اتخذ هذا الرمز معانى مختلفة، لكن عند إعادة ترجمته إلى الصفـــر أو العدم . فقد اكتسب أهمية كبيرة لدى ربطه برموز أخرى رقمية ومثال على ذلك، فإن الصفر إذا وضع على شمال رقم معين فإنه لا يؤثر في قيمة ذلك الرقم، أما إذا وضع على يمين الرقم فإنـــه يزيد من قيمته. مثال على ذلك: (١٠-٠١).

ويضيف منينجز (423 - 10) بأن الهنود القدماء قد واجهوا مشاكل عند تعاملهم مع رمز الصفـــر الذي يعني لا شيء. لقد كان بالنسبة لهم رمزا يخلق الفوضى والمتاعب. وحتى المتعلمون منـــهم لم يكونوا واثقين من أن الصفر كان ضروريا بالفعل، أو أنه كان يجب اعتباره كرقم من الأرقام .

وخلال العصور الوسطى فإن الأوروبيين – المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالأرقام الرومانيـــة – لـــم يميلوا إلى استخدام الصفر نظراً لأن أرقامهم كانت تنحصر في سيـــاق واحد من (I إلـــى X) أي من (١ إلى ١٠) وهذا النظام كان قائما على أساس الرقم المفرد وليس الرقم المركب كما هو في الأرقام العربية. ويستخدم منينجز الرسم البياني التالي (ش ١) لكي يبين التطور التاريخي لرقـــم الصفر أو "الفراغ" عبر القرون .

اللغة السنسكريتية (القرن ٦، ٨)	(سوانيا = الفراغ)	
اللغة العربية (القرن ٩)--------	------ الصفر	
اللغة اللاتينية (القرن ١٣)------	سيفرا	زفيروم
	↓	↓
اللغة الفرنسية (القرن ١٤)------	شيفرى	زفير يفيرو – زيرو (الايطالية)
	↓	↓
اللغة الألمانية (القرن١٥) ------	زيفر	زيرو (الفرنسية، الإنجليزية)

شكل رقم ١

الرموز كحروف هجائية

يناقش كريج (102 - 3) ظاهرة ملفته للنظر تتمثل في أن الحروف ظلت تحتفظ تقريبـــاً بنفـــس الشكل والمعنى الذان ارتبطاً بها منذ بداية نشأة هذه الحروف، وذلك حسبما يوضحه كريج فـــي الشكل (٢) .

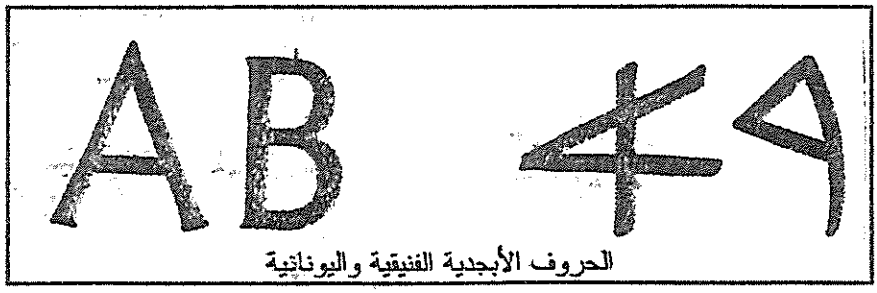

الحروف الأبجدية الفنيقية واليونانية

شكل رقم ٢

ولقد بدأ الإنسان في مرحلة ما من التاريخ – بالاتصـــال بالآخريـــن . وفـــي سبيـــل تحقيـــق هـــذا الهـــدف فقـــد عمـــل رسومـــات بسيطة للأشيـــاء التي كان معتادا عليها فـــي حياتـــه

اليومية مثل: الحيوانات والناس والأسلحة . ويذكر كريج أن هذه الأشياء كانت تسمى حينـــذاك (الصور / الخطية) . ومع تطور وسائل الاتصالات فقد أصبح الإنسان قادراً على وضع أفكـاره في رموز مكتوبة وكل رمز له معنى محدد. وبمرور الزمن أصبح الناس يربطون الرموز ليس فقط بالأشياء بل بالأفكار أيضاً . ومع بدء عصر الحضـــارة وتكـون المجتمعـات والشـعوب أصبحت القدرة على الاتصال أكثر أهمية . وقد بدأت الحـروف الهجائيـة بـالتطور وأصبـح بالإمكان جمع الأفكار والآراء معا في صيغة موحدة بحيث يستطيع الناس جميعاً إعطاء نفـــس المعنى لنفس الرمز .

الرموز في الدين :

تطورت الأنظمة الرمزية – عبر العصور – كتعبير بصري عن معتقدات الإنسان الدينية وذلـك من أجل إعطاء معنى للشيء غير المعروف والذي لا يمكن رؤيته. ويقول بيفان (13 , 12 - 2) في كتابه "الرمزية والعقيدة" إن جميع المفاهيم التي توجد لدينا عن العالم الروحي متجسدة فـــي رموز .

ويصنف بيفان هذه الرموز إلى رموز تتعامل مع الحواس، كرموز مرئية، وأخـرى مسـموعة سواء كانت على هيئة مرئية كأشياء، أو مسموعة كالموسيقى وصوت الأجراس أو على هيئـــة روائح كالبخور . وتستخدم هذه الرموز لطرح بعض الأفكار أو المفاهيم التي تدور فـــي ذهـن المرء . وذلك من أجل نقل رسالة محددة فمثلاً بالنسبة للشخص المسيحي فإن الصوت المنبعـث من الجرس الموجود في أعلى الكنيسة يعني دخول وقت الصلاة، وكذلك الأمر بالنسبة للبـوذي، أما بالنسبة للمسلم فإن الأجراس غير مستعملة في هذا المجال، لكنه يستخدم بـدلاً منـها نـداء صوتيا بترتيل جميل وهو "الأذان" المعروف .

وتقول راسيل في كتابها : الفن في العالم (195 - 11) إن الرموز كانت مهمة بالنسبة للمســيحيين الأوائل نظراً لأنهم كانوا شعوباً يتكلمون العديد من اللغات مثل : اليهود والرومـــان وشـعوب الشمال الذين كان يطلق عليهم الغال والقوطيون والفيزيقوطيون .

وعندما التقت هذه الشعوب ذات اللغات المختلفة معا في روما – معقل المسيحية – كانوا يتخاطبون فيما بينهم باستخدام العلامات والرموز.

هذا وقد استخدم المسيحيون رموزاً أخرى لكي يخبروا المسيحيين الآخرين بأنهم مسيحيون، ولكي يخفوا هذه الحقيقة عن المضطهدين. وتضرب راسيل مثالاً على ذلك بأن المسيحيين كانوا يستخدمون شكل السمكة كرمز يدل على السيد المسيح، في الوقت الذي لم يكن فيه لدى الناس الذين لا يدينون بالمسيحية أية فكرة عما يمثله هذا الرمز الشكلي . وتقول راسيل أن السيد المسيح كان يرمز له برموز مختلفة تتمثل في : الطاووس، والعنب، والأزهار والحيوانات والطيور والأسماك، ومن هذه الرموز في الشكل التالي (ش ٣) .

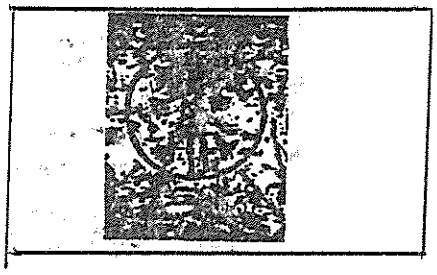

شكل رقم ٣

الرموز كوسيلة للاتصال :

ويتحدث كريج (1 - 3) في كتابه "التصميم النوعي" عن الأزمنة الأقرب إلى التاريخ المعاصر حيث أصبح الناس بحاجة أكبر إلى الاتصال مع بعضهم البعض . وهو يحدد الأفكار والرموز التي يحتاج إليها الإنسان للتواصل مع المجتمع ككل . ويعطي كريج مثالاً على ذلك : شكل جمجمة مع عظام متصالبة فهي تمثل الخوف والموت والخطر في معظم اللغات والثقافات . وفي هذا المثال لا أحد ينظر إلى الجمجمة أو العظام كرموز في حد ذاتها، لكنه ينظر إلى ما تشير إليه من معنى محدد الأبعاد . (ش ٤) .

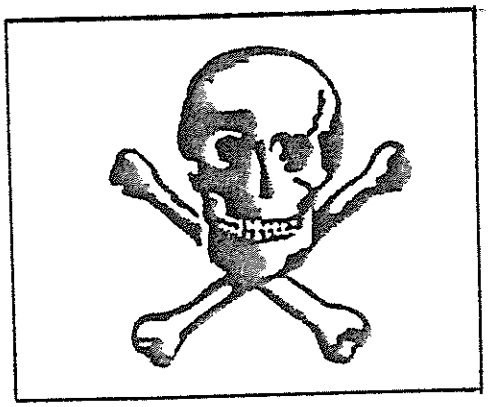

شكل رقم ٤

أثر الطباعة في تنظيم الرموز :

يكشف كريج كيف أن تطور الطباعة ساعد في جعل الكثير من الرموز موحدة وثابتة، كما أنه أعطى أهمية أكبر للغة المكتوبة . وذلك كرد فعل تجاه الأهمية الكبيرة للرموز وما يجب فعله تجاه دعم وتحديث تنظيمها .

فعلامات الترقيم مثلاً لم تكن معروفة في اللغة اللاتينية باليونان وروما. وعندما بدأت المطابع في الدوران أصبح من الضروري للإنسان أن يستخدم رموزا أو علامات تنهي بها جملة ما . وهذا يبين لنا إحدى القيم التي تشتمل عليها الرموز . وهو ما يقابله في اللغة العربية علامات الفصلة والنقطة وعلامة الاستفهام وغيرها .

الرموز والتحليل النفسي :

يقول بيرجر (78 - 1) في كتابه "وسائل الإعلام وأساليب البحث المعتمدة على الاتصالات" إن الرموز هي المفاتيح التي تمكننا من فتح الأبواب التي تحجب مشاعرنا ومعتقداتنا المستقرة في منطقة اللاوعي من نفوسنا، فالرموز هي عبارة عن رسائل موجهة من منطقة اللاوعي إلى العقل والوعي .

وحسب ما يراه بيرجر، فإن الرمزية تلعب دوراً عظيماً في مجال التحليل النفسي إذ أنها تعطي معنى لذلك الشيء الذي يستشعره الإنسان . ومع أن هناك صعوبة في تأويل الرموز (الانفعالات أو صور الأحلام)، إلا أن مجال التحليل النفسي قد خلق نظامه الرمزي الخاص به .

إن الرمزية والتحليل النفسي – حسبما يراه بيرجر – متصلان بشكل مباشر بعمل سيجمون فرويد . إن عمله في مجال الأحلام الرمزية معروف جيداً . ويعتقد علماء النفس أن من الممكن مقارنة الأحلام بالرموز التي تشبه تلك المستعملة في مجال وسائل الاعلام وعلى الأخص وسائل الإعلام المتحركة كالأفلام السينمائية أو التليفزيونية فالأحلام تشبه الأفلام والصور التليفزيونية .

يقول بيرجر (83 - 1) إن فرويد يعتقد بأننا نمنع الأفكار المحظورة من دخول أذهاننا وذلك بواسطة إخفائها في شكل رموز . إن الرموز مفيدة لأنها تسمح لنا باختلاس المواد "المحظورة" من خلال جهاز الرقابة الداخلية الموجود لدينا .

ويشير بيرجر في المرجع نفسه إلى أن معظم هذه الرموز لها دلالات جنسية . فالعضو الذكري يرمز إليه بالعصى والشجر والمظلات والسكاكين وأقلام الرصاص والمطارق والطائرات وأشياء أخرى كثيرة عديدة ترمز إلى شكله أو أدائه. وفي المقابل فإن العضو الأنثوي – كما يقول بيرجر – يتم تمثيله بنفس الطريقة لكن بالكهوف والزجاجات والصناديق والأبواب وعلب المجوهرات والحدائق والأزهار . أما المتعة الجنسية فيتم تمثيلها بنشاطات مثل الرقص والركوب والتسلق والطيران . أما سقوط الشعر أو الأسنان فإنه يرمز إلى عملية الخصي .

وبعيداً عن العناصر الجنسية، يتابع بيرجر كلامه قائلا إن الرموز تعبر عن الخبرة الأساسية التي يمر بها الطفل الصغير . فالأب والأم يرمز إليهما بالملك والملكة، أو بالإمبراطور والإمبراطورة، والأطفال يرمز إليهم بالحيوانات الصغيرة، والموت يمكن أن يشار إليه برحلة .

أما إدواردز (65 - 5) في كتابها "الرسم على الجانب الأيمن من الدماغ" فلها رأي آخر فيما يتعلق بالنظرية الفرويدية . حيث حاولت إدواردز بيان أن الإنسان يمر في مراحل كثيرة من الحياة يتعلم خلالها كيف يتعامل مع الرموز . وفي مرحلة مبكرة من حياتهم يبدأ الأطفال بـ "الخربشة" في محاولة منهم لاكتشاف الفن، ثم يبدءون بعد ذلك برسم الخطوط التي تمثل الأشياء بالنسبة

لهم. فالدائرة قد تعني الأب أو الكلب، والخط قد يعني شجرة . وعند سن الثالثة والنصف يتوسع خيال الطفل حيث يصبح أكثر وعياً على العالم من حوله.

جانج (7 - 8) في كتابه "رموز التحول" يؤيد وجهة نظر فرويد القائلة بأن صور الأحلام يجب أن تفهم بطريقة رمزية . وهو يعتقد بأننا يجب ألا نأخذ الرموز أو الصور كما هي تماماً، بل يجب أن نبحث في هذه الحالة عن معنى دفين داخل هذه الرموز والصور . لقد كان الناس في العصور القديمة يسعون إلى تفسير أحلامهم لكي يتوصلوا إلى معاني هذه الأحلام . وهنا يعطي جانج مثالاً على مفسري الأحلام المصريين والكلدانيين . ويذكر في هذا السياق قصة سيدنا يوسف عليه السلام الذي فسر أحلام عزيز مصر، كما يبين كيف أن حلم الملك "نبوخذ نصر" كان يعتقد بأنه تحذير من الله تعالى .

يقول "جانج" أنه طبقاً للمعتقدات السائدة فإنه يحدث حوار مع الإنسان وهو نائم بلغة رمزية . والرسالة في هذه الحالة يمكن مقارنتها بلغز يتوجب على الإنسان أن يجد حلا له، كما يعتقد جانج (8 - 8) بأن صور الأحلام لها دلالات جنسية تعكس الصراعات والخلافات بين الناس . وهو يلاحظ بأن اللصوص والمجرمين والقتلة والمعووسين جنسياً يظهروهن في الأحلام الجنسية لدى النساء . كما أن آلة القتل يتم التعبير عنها برموز كالخنجر والبندقية والمدفع وغير ذلك من أنواع الأسلحة . وكذلك فإن الخطر يعتقد بأنه يتمثل في صور حيوانات مفترسة وأفاعي كرموز لمعنى الخطر .

ويعتبر جانج (228 - 8) الرمزية كجزء من العملية النفسية . ويقول بأنه لا يمكن تشكيل أي رمز بدون العملية الغريزية لدى الإنسان . وهو يزعم بأن الرمز إنما يستمد قوته الدافعة من هذه العمليات . فالرموز لا تحمل أية معان ما لم يعطها الإنسان المعنى والشكل . إن الكثير من المعاني محددة لأن الإنسان محدد في تفكيره وعلاقاته بالآخرين . وإنه من خلال التعليم والتعليم وحده يجمع الإنسان معلومات أكثر لكي يستفيد منها في زيادة قدرته على تأويل وتفسير الرموز وإضافة المزيد إلى عملياته العقلية، وهذا التعليم يبدأ عندما نكون أطفالاً صغاراً، ولا ينتهي .

وتشير إدواردز إلى أن عالم الطفل مكون من رموز، يبتكرون الكثير منها للتعبير عن أنفسهم كما هو مبين في (ش٥) ونستطيع القول بأن عالم الطفل مكون من مجموعة رموز يستطيع أن يربطها بالمعاني مع مرور الزمن .

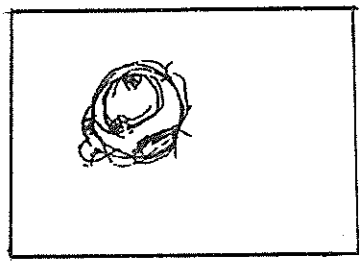

شكل رقم ٥

الرموز والعلاقات الاجتماعية

يقول وايت (315 - 12) في كتابه "الرمز هو منشأ وأساس السلوك الإنساني" إن كل السلوك الإنساني يبدأ من استخدام الرموز . وأن جميع الحضارات قد نشأت وكتب لها الخلود عن طريق استخدام الرموز. ويقول بأن جميع الثقافات (الحضارات) تعتمد في بقائها على استمرارية وبقاء الرموز . إن ممارسة القوة الرمزية هي التي أخرجت الثقافة إلى حيز الوجود، وإن استخدام الرموز هو الذي يجعل خلود الثقافة أمراً ممكناً.

إن الرمز هو الذي منحنا القدرة والإمكانيات الإنسانية على التحاور، هذه الإمكانية المتمثلة في التعليم واكتساب المعرفة والقدرة على استخدامها. ويردد وايت (315 - 12) مقولة داروين "لا يوجد هناك فرق جوهري بين الإنسان والحيوانات اللبونة الراقية في قواها العقلية، والفرق الوحيد يكمن في أن الإنسان يمتلك قدرة أكبر على ربط الأصوات والأفكار الأشد تنوعاً بعضها ببعض، حيث إن الرموز ترتبط ارتباطاً مباشراً بسلوك الإنسان وتعطيه توجيها لما يعتقد أنه يجب عليه القيام به .

ويقول وايت (317 - 12) بهذا الصدد الرمز هو شيء تمنح له قيمته أو معناه من قبل أولئك الذين يستخدمونه" . وإن الرمز الذي أضفى الإنسان عليه معنى ما، إنما هو حافز يجعله يستجيب له

بطريقة ما . والفرق الأساسي بين الإنسان والحيوان – حسب نظرية داروين – هو أن الإنسان له دور فعال في تحديد القيمة التي يجب أن يكتسبها أي رمز خاصة الصوتي منه .

يعتقد وايت بأن الكلام هو أهم شكل من أشكال التعبير الرمزي، إذ أنه لو حذف الكلام من الثقافة لانعدمت القيم وأصبح الإنسان أفضل بقليل من الحيوان . إن الكلمة كانت هي بداية الثقافة وهي التي جعلت خلود هذه الثقافة أمراً ممكناً . وبدون الكلمة فإن سلوك الإنسان وسلوك الحيوانات سوف يكونا متشابهاً نسبياً .

ويمكننا أن نخلص إلى القول بأنه بدون الرموز فإن الإنسان لم يكن ليحقق ما هو عليه اليوم من بناء الأمم العظيمة، وتطوير النظم الاقتصادية المتقدمة وتكوين المعتقدات الدينية .

جميع المعلومات يمكن أن يقال أنها تتعايش في شكل رمزي، هذه الأشكال الرمزية التي أعطاها الإنسان المعاني، وبها أصبح قادرا على توسيع العلوم والمعارف ونقلها من جيل لآخر .

وفي معرض تعريفه للرموز يقول جولدامر (900 - 7) إن الرموز تتطلب ربط الأفكار والقيم للتعبير تعبيرا كاملا عما يراد إيصاله للطرف الآخر . إن قيمة الرموز لم تكن لتبلغ هذا المستوى من الأهمية لو أن الإنسان لم يتعلم كيفية استخدامها بطريقة منطقية وهادفة .

وتوضح لانجر (60 - 9) في كتابها "مقدمة للمنطق الرمزي" أن الرموز هي أداه للاستكشاف. ويقدم مثالا على ذلك في علم الرياضيات من إدخال رمز "الصفر" الذي أصبح جزءا هاما لا يتجزأ من النظام الحسابي الذي نستخدمه حاليا . وأن الطفل في المدرسة الابتدائية يستطيع أن يكتب بطريقة مرتجلة أرقاما حسابية، لو أراد حكيم في العصر الروماني أن يكتبها لاحتاج إلى استخدام المعداد. وهذا ببساطة بفضل رمزيتنا الفائقة المتمثلة في الأرقام التسعة فضلا عن الصفر .

لقد تم وضع الرموز في هيكل منطقي يقدم المعنى إلينا حيث إن من هذه الرموز ما له دور معين يلعبه في مجال اللغة وفي أشكال القواعد الموجودة في اللغة هي مثال يبين لنا كيف أن الرموز مرتبطة ببعضها البعض من خلال نظام منطقي نستطيع أن نجد فيه معنى لكثير جدا من الأشياء. ونستطيع القول بأن علاقة أحد الرموز بالآخر يؤدي– حسب رأي لانجر (62 - 9) –

إلى تفهم أوضح للأفكار القديمة واكتشاف أفكار جديدة، وجميعها توحي إلينا بأن المعرفة تتكـون من رموز مترابطة بشكل منطقي. إن نشأة المعرفة مردها إلى أن الإنسان من اسـتطاع خـلال الرموز والرموز فقط – أن يشخص ويحلل الشيء الذي لم يستطع أبداً أن يفهمه من قبل . ونحن نجد مثالاً جيداً على ذلك سواء في الصيغ البسيطة أو المعقدة في علوم الفيزياء والكيمياء وكذلـك في مختلف العلوم الأخرى .

النتائج :

- إن الرموز Sembols هي أداة تحمل معنى أو رسالة وتربط بين المعنى وبين أفراد المجتمع المستقبل للرسالة .
- الرموز مهما كانت درجة تجريدها فأنها تكتسب المعنى بمرور الزمن، ذلك المعنى الذي قد يختلف من مجتمع لآخر، على الرغم من ثبات نفس الرمز .
- الرموز هي انعكاس شديد التجريد لثقافة ما، وهي الثقافة التي قد تختلف من مجتمع لآخر .
- لكل مرحلة عمرية رموزها التي تعكس ثقافتها والتي تتوارثها الأجيال عبر الزمان، من أجل توارث ما هي محملة به من ثقافة .
- لفنون الرسوم التخطيطية والإعلان اثرها الكبير في إبداع الرموز المرئية مهما اختلفت مجالات تداولها، وجعلت من الرموز لغة متكاملة الأبعاد من الناحيتين الجمالية والنفعية .
- الرموز البصرية كانت اللبنة التي تأسست عليها الفنون التشكيلية والتي أسهمت في نقل وتفسير دوافع الفن – عبر العصور – إلى المتلقى في كل مجتمع .
- تمثلت الأرقام الحسابية في أكثر أنظمة الرموز تجريداً منذ نشأتها وحتى يومنا هذا وقد تشكلت أهمية نتيجة ما يحمله كل رقم أو رمز شكلى، من كم عددي .
- الحروف الهجائية كرموز مرئية أسهمت في حمل معاني التراث البشري عبر الزمان والمكان .
- أسهمت الأنظمة الرمزية – كتعبيرات بصرية – في شيوع وانتقال المعتقدات الدينية عبر العصور وخلال الأديان .
- الرمز وما يحمله من معنى محدد يمثل وسيلة من أهم وسائل الاتصال المعاصرة، الأمر الذي دفع بالمهتمين بها نحو تحديث ونظم أساليب طباعتها وابداع المزيد منها .
- ارساء نظام للرموز – في مجال التحليل النفسي – ثم القدرة على تأويل هذه الرموز، فتح الباب على مصراعيه لتحليل وعلاج النفس البشرية أو تفسيرها .

- الرمز هو منشأ وأساس السلوك الاجتماعي، الذي قد تختلف رموزه من مجتمع لآخر . كما أن بقاء الرموز واستمرارها يسهم في نشأة واستمرار وخلود الثقافات ومن ثم الحضارات، وما تضمنه من نظم سياسة واقتصادية ومعتقدات دينية وعادات وتقاليد، تأسست جميعها على نظم رمزية مسموعة أو مرئية أو غيرها، أعطاها الإنسان المعاني، كي تبقى، وتتوارثها الأجيال .

المراجع :

(1) Berger, Arthur Asa. Media and Communication Research Methods: An Introduction to Qualitative and Quantitative Approaches. Altamira Pr; 2000, ISBN: 0761918531.

(2) Bevan, Edwyn. Symbolism and Belief. New York: Kennikat Press. 1968.

(3) Craig, James, William Bevington Susan E. Meyer (Editor). Designing With Type : A Basic Course in Typography (4th Edition). Watson-Guptill Pubns; 1999. ISBN: 0823013472.

(4) Eckhart, Meister. "The Sign and Symbol in Graphic Art", The Language of Graphics. Edward Booth - Clibborn and Daniele Baroni, 1980.

(5) Edwards, Betty. The New Drawing on the Right Side of the Brain. J P Tarcher; 1999. ISBN: 0874774241.

(6) Gardner, Howard. Frames of Mind: The Theory of Multiple Intelligences. Basic Books; 1993. ISBN: 0465025102

(7) Goldammer, Kurt M.A. "Symbolism and Iconography, Religions," Encyclopaedia Britannica, 15th ed., Vol. 17, 1982.

(8) Jung, C.G. Symbols Transformation. R. F. C. Hull Trans; Routledge and Kegan paul, 1969.

(9) Langer, Susanne K. An Introduction to Logic. 2nd ed. Dover Publications: 1953.

(10) Menninger, Karl, Paul Broneer (Translator). Number Words and Number Symbols: A Cultural History of Numbers. reprint edition,

Dover Pubns; 1992. ISBN: 0486270963.

(11) Russell, Stella Pandell. Art in the World 4th edition, Hbj College & School Div: 1997. ISBN: 0030765439

(12) White, Leslie A. "The Symbol: The Origin and Basis of Human Behavior," A Review of General Semantics, Vol. l, 1944.

ملخص البحث

الرموز التشكيلية كتعبيرات بصرية، وأثرها في نشأة التراث الفني والعلمي

د. سالم بورسلي

استاذ مساعد التصميم بكلية التربية الأساسية

الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب

الرموز تستخدم بطرق كثيرة ومختلفة في كل مجتمع، وهي تشكل جزءاً كبيراً من الثقافة لدرجة أن إدراكنا لها بأنها شيء مجرد قام الإنسان بإعطائه معنى – أصبح هذا الإدراك مفقود نسبياً . إن الرموز مع مرور الزمن تبرز تارة وتختفي أو تتغير تارة أخرى من حيث قيمتها ووظيفتها . مع أن الرموز تميل إلى أن تكون ثابتة ومستقرة وذات معان وقيم ثابتة، لكن غولدامر يخبرنا بأنها في حالة تغير مستمر. فالرموز تستخدم وتنسى كما أن رموزاً جديدة تبرز إلى حيز الوجود . وهناك الكثير من الرموز التي كانت لها معان عظيمة في العصور القديمة وقد أصبحت الآن في طي النسيان لأنه لم يبق لها أي معنى أو هدف يمكن أن تشير إليه .

فالرمزية تتغير بتغير الثقافة، لكنها أيضاً لها دور قوي في إحداث التغيير، لأن الإنسان يستطيع من خلال استخدام الرموز أن يعبر عن الأفكار التي يمكن أن تصبح يوما ما حقيقة واقعة لم تكن معروفة في السابق . فالرموز هي القوة الدافعة للمجتمع في عملية التطور والارتقاء . ومثال على ذلك أن الإنسان في العصور القديمة لم يستطع أن يقوم بالعد لأنه لم تكن لديه أرقام . لكن عندما تم اختراع رموز هذه الأرقام، فقد أصبح الإنسان قادراً على هندسة وبناء الجسور

والسدود العظيمة . وعندما تزايد عدد الرموز أصبح الإنسان قادراً على بناء العمارات الشاهقة، والنزول على سطح القمر، وتصميم الحاسبات الآلية التي تدير المصانع وتختزل الوقت والزمن .